المسلمون في بولندا [1]

الأستاذ مصطفى كمال عبد العليم

هناك صفحة ليست معروفة تماما فى التاريخ البولندى تتعلق بتاريخ القبيلة التترية الاسلامية التى استوطنت المنطقة الشمالية الشرقية من بولندا . فكما استقرت الشعوب الإسلامية فى أوربا كقزاة — إذا استثنينا مسلمي يوغوسلافيا الذين هم من أصل صربى أسلموا عن طريق الغزو العثمانى — كذلك استوطن تتار بولندا اقليما لم يطأه غازٍ مسلم من قبل . ومن المعروف أنهم بدأوا يستقرون فى بولندا منذ منتصف القرن الرابع عشر .

وليس هناك من شك فى أصلهم الجنسى ، فهم من الجنس التركى المغولى انحدروا من امبراطورية جوشى بن جنكز خان وعرفوا باسم « الرعيل الذهبى » فى غربى القبشاق [2] . ولكى نعرف متى وكيف استقروا فى بولندا يجب أن نعرف أسباب تكوين تلك البقعة الإسلامية الصغيرة وظروف ذلك التكوين ، ثم كيف استطاعت هذه النتة المسلمة وهى محاطة من كل جانب بشعوب مسيحية — أن تحتفظ بدينها خلال كل تلك القرون ، وبخاصة من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر ، تلك القرون التى تميزت بالنضال العنيف بين المسيحية والإسلام .

هناك حقيقتان ثابتتان أولاهما : أنهم بدأوا فى الاستقرار قبل سنة ١٣٩٢ وذلك من وثيقة ترجع إلى ذلك التاريخ تتعلق بمنح قطعة أرض لأسرة تترية . والأخرى : من وثائق ترجع إلى سنة ١٤٧٥ أمكن معرفة استقرار مركزهم الاجتماعى والقانونى إذ ذاك ، فهم يمتلكون اقطاعيات منحتها لهم السلطات المركزية مقابل تعهدهم بالخدمة العسكرية وقت الحرب . فما هى الأسباب التى دعت هذه السلطات إلى أن تسمح بإيواء عنصر غريب الجنس والدين فى أراضيها ؟ حقيقة أن هناك خدمة إجبارية وقت الحرب مقابل هذا الإيواء ، ولكن حتى هذا الالتزام دليل واضح على ثقة السلطات بهؤلاء التتار فما علة ذلك ؟

أخذ أسلاف التتار فى الاستقرار فى ضواحى مدينة فيلنو البولندية التى كانت تابعة لدوقية لتوانيا فى القرن الرابع عشر . وكانت لتوانيا إذ ذاك دولة متسعة ممتدة من نهر نيمن إلى نهر أوكا ، ومن البحر البلطي إلى البحر الأسود ، وكانت مهددة بغارات الفرسان التيوتون فى الغرب ، وامارة موسكو الناشئة فى الشرق التى بدأت تسود الامارات الروسية الأخرى بفضل مساعدة « الرعيل الذهبى » التابعين لموسكو . وكان سكان لتوانيا يبلغون بضعة آلاف ، فكان يخشى أن تنفصل الامارات الروسية التابعة للتوانيا لتنضم إلى موسكو بحكم اللغة ووحدة الدين . فكان على لتوانيا أن تحارب فى اتجاهين متضادين ، وكان على أدواقها تجنب الاشتباك مع الرعيل الذهبى القوى ، وكسب تحالفه إن استطاعوا . وهذا ماحدث فعلا سنة ١٣١٩ . فكان هذا التحالف موجها أولا سنة ١٣٧٠ ضد الفرسان التيوتون ، ثم ضد موسكو ثانيا سنة ١٣٨٠ . هذا هو مبدأ الإتصال بين التتار المسلمين وبين لتوانيا وبولندا . وقد يتصور البعض أنه من الصعب تحالف شعبين أحدهما مسلم والآخر مسيحى فى ذلك الوقت الذى يفور بالعصبية العمياء ، ولكن إذا عرفنا أن اللتوانيين كانوا وثنيين أمكن تصور حدوث مثل هذا التحالف

ثم كان أن اتحدت لتوانيا مع بولندا سنة ١٣٨٦ واعتنق اللتوانيون الكثلكة ، ولم يؤثر ذلك فى سياسة لتوانيا نحو الرعيل الذهبى ، بل بالعكس ازداد انتظام العلاقات الودية بين التتار المسلمين وبين المملكة اللتوانية البولندية المتحدة الكاثوليكية .

لم تعد لتوانيا تقنع باضعاف موسكو ، بل تريد القضاء عليها ، فتدخلت فى شؤون الرعيل الذهبى الذى بدأ يتفكك فأخذت تناصر الخانات الأقوياء لتفيد منهم فى القضاء على إمارة موسكو ، كما شجعت هجرة التتار إلى أراضيها ، ومن ثم سمحت لهم بالاستقرار حول فيلنو كما وجد التتار المطرودون من القبشاق

(١) ملخصة عن مقالة « The Muslims in Poland By : L. Bohdanovicz .The gournal of The Royal asiatic Society. 1942 »

(٢) كانت امبراطورية جنكزخان تمتد من الصين إلى بحر قزوين قسمها بين أولاده الأربعة . وكان من نصيب جوشى البلاد الواقعة بين نهر إرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين وكان إسم تلك البلاد عامة « القبشاق » ويطلق عليها « الرعيل الذهبى » Golden Horde نسبة إلى خيم عسكراتها ذوات اللون الذهبى (حاشية فقرة ٤ ص ٣٩٤ القسم الثانى من الجزء الأول من كتاب المغول لمؤلفه نصر الدكتور زيادة)

ملجأ رحباً فى لتوانيا . والواقع أن لتوانيا قد جربت اخلاصهم وشدة مراسهم فى الحروب ضد الفرسان التيوتون وضد إمارة موسكو .

وقد عاش التتار فى هذا الاقليم ستمائة سنة ، إلا أنهم كونوا جماعة متميزة بتقاليدها وعاداتها من العنصر الذى عاشوا بين ظهرانيه . وبرغم أنهم تزوجوا بمسيحيات نظرا لقلة النساء المسلمات اللائى هاجرن معهم ، فإنهم احتفظوا بدينهم وتمسكوا به كما ظل طابعهم التركى الفترى متميزا ظاهرا .

وقد تأثر التتار بالبيئة الجديدة التى استقروا بها . فبعضهم لم ترضه حياة الدعة والاستقرار ، فعادوا إلى مراكزهم الأولى فى القبشاق ، والبعض الآخر بقى ، وهؤلاء كانوا قد تأقلموا فى القرن الخامس عشر ونسوا لغتهم حوالى منتصف القرن السادس عشر . ويرجع ذلك إلى اضطرارهم إلى الزواج بنساء بولنديات ، فشب الأبناء على لغة أمهاتهم ، إذ أن الآباء كثيراً ما كانوا يتغيبون فى الحروب ، وفى هذا تفسير جزئى لاتخاذ المسلمين أسماء بولندية . ولكن برغم كل ذلك لم يضعف تمسكهم بدينهم — كما قلنا — كما أنهم حرصوا على الاتصال الدائم بالعالم الإسلامى وإن كان هذا الاتصال يتأثر بطبيعة الحال بالظروف السياسية . فمن وثيقة ترجع إلى القرن السادس عشر نعرف أنهم حجوا إلى مكة ، كما كانوا فى ذلك الوقت يتداولون فيما بينهم بنقود عربية لابد وأنهم جلبوها معهم بعد عودتهم من الحج . وكان من الطبيعى أن تفيد منهم الحكومة البولندية بأن تجعل منهم سفراءها لدى الدول الإسلامية ، وهذا مشاهد من إرسال مترجمين ومبعوثين سياسيين من بين التتار المسلمين خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر . ثم من ناحية أخرى كان التتار يستعينون بأئمة وعلماء دينيين من تركيا والقرم ليشملوا بهم وظائفهم الدينية . ومن الطريف أن نذكر أنهم كانوا يستخدمون الحروف العربية فى مؤلفاتهم الدينية والعلمية المؤلفة باللغة الروسية أو البولندية .

وقد بلغ التتار البولنديون القمة فى تطورهم فى منتصف القرن السادس عشر الذى كان عصراً ذهبياً كذلك للتاريخ البولندى . ويمكن أن نقدر عددهم إذ ذاك بنحو مائة الف . وكان فى كل قرية يقطنها المسلمون مسجدها الخاص ، وفى بعض المدن هناك شوارع تترية إسلامية صرف ، بل وأحياء بأكملها خاصة بهم .

وهناك مرسوم ملكى مؤرخ بتاريخ ٢٠ يونية سنة ١٥٦٨ بين مراكزهم بالنسبة للعناصر الأخرى ، وهذا المرسوم يعين حقوق نبلاء المسلمين وامتيازاتهم ومساواتها بحقوق المسيحيين وامتيازاتهم . والواقع أنهم كانوا أقل فى بعض الحقوق من المسيحيين ، فليس لهم حق الانتخاب للمجمع البولندى ، وليس لهم أن يكونوا أعضاء فيه أو فى مجالس الولايات . وظلوا محرومين من هذا الحق حتى ظهور دوقية وارسو على يد نابليون سنة ١٨٠٧ . ولكن من ناحية أخرى يشتركون مع النبلاء المسيحيين فى الصفة المميزة لنبلاء العصور الوسطى ، وهى ملكية اقطاعات من الأرض كان يقطعها لهم الملك ، فكانوا يسمون أحيانا « تتار الملك » وهم إلى حد ما أتباع مباشرون له ، فهم لايستطيعون توارث ارضهم دون موافقة الملك ، إلا أن هذا الحق فى التوارث صار نهائياً فيما بعد . أما من الوجهة الاجتماعية فهم مقسمون الى طبقات ثلاث : الطبقة الأولى كبار الملاك ذوى الاقطاعيات الواسعة ، وهم ملزمون بالخدمة العسكرية وبتقديم جماعات من الفرسان كاملى العدة وقت الحرب ، وتضم هذه الطبقة الأمراء والأشراف . والطبقة الثانية الجند العاديون ولهم أراض تقل فى مساحتها عن أراضى الطبقة الأولى وهم على العموم يزرعون أرضهم بانفسهم . أما الطبقة الثالثة فلا يمتلك أفرادها نصابا معيناً من الأرض ، يشتغلون بالزراعة وأعمال النقل والبريد ، إلا أن فى إمكانهم الوصول إلى مركز محترم عن طريق الخدمة العسكرية . وكانت الطبقتان الأولى والثانية معفاتين من الضرائب ، ولكن بمضى الوقت أخذت الفوارق تتلاشى بين الطبقات .

[البقية فى العدد القادم]

مصطفى كمال عبد العليم

العصبية المفرقة

للأستاذ محمود الشرقاوى

أبرزت الانتخابات البرلمانية التى جرت فى الأسبوع الماضى ظاهرة جزع لها رجال السياسة كما جزع لها المفكرون على السواء

هذه الظاهرة هى تحريك العنصرية الطائفية واستغلالها فى الصراع الانتخابى بين المرشحين والناخبين .

ورجال السياسة والمفكرون من حقهم أن يجزعوا لبروز هذه الظاهرة التى من شأنها - لو أنها لم تتدارك - أن تضعف التماسك الشعبى بين أبناء الأمة وأن تعطل إلى حد كبير سيرها إلى أهدافها الوطنية ووصولها بعد ذلك إلى هذه الأهداف ، وأن تقلل من تقدير الأمم ذوات السيادة للوطن المصرى وللوطنية المصرية ولقيمة الشعب ومكانته من الحضارة والثقافة ومايستتبعه ذلك من اعتراف هذه الدول لمصر بحقها فى الحياة الحرة وتمكينها مما تتطلبه من مركز حسن بين مجموعة الأمم المتحضرة ومكان ممتاز بين مجموعة الشعوب العربية بوجه خاص

ومن المقاييس الصادقة التى تقاس بها حضارة الأمم وثقافتها وحظ طبقاتها من التهذيب مقياس التسامح الدينى والطائفى . فكلما كانت الأمة أعرق حضارة وأعمق ثقافة وأرق تهذيباً ، كانت أبعد بطبقاتها وأفرادها عن التعصب الدينى والعنصرى ، ومما يتصل بأى نوع من أنواع التعصب للأقليم أو المهنة أو التعليم أو الثقافة . وكلما كانت الأمة أقرب إلى البدائية فى حضارتها وثقافتها وتهذيب شعبها احتدّ بين طبقاتها وأفرادها التعصب وتعددت ألوانه ومظاهره .

وكذلك الأفراد يمكن أن يقاس تهذيبهم رفعةً وخفضاً ورقة وغلظة ، وأن تقاس ثقافتهم تعمقاً وسطحية وجوهراً ومظهراً ، بمقياس بعدهم أو قربهم من التعصب لدينهم أو ذاتهم أو إقليمهم أو معهدهم التعليمى أو نوع ثقافتهم .

وهذه كلها بدائه أعتقد أن جمهوراً ممتاز الثقافة والفهم مثل قراء « الرسالة » لابد أن يعرفها ويسلم بها

وكما أبرزت الانتخابات البرلمانية الأخيرة هذه الظاهرة المؤسفة من مظاهر التعصب الطائفى عند فريق من الناس فتداركها رجال السياسة والبقلاء من المفكرين ، أبرزت حوادث أخرى مثل إنصاف الطبقات والمتخرجين فى الجامعات والمدارس ظاهرة أخرى لنوع آخر من التعصب المهنة أو الوظيفة أو المعهد أو الثقافة ، وكلها ألوان من التعصب عى كما قلنا تمس إلى حد كبير وحدة الأمة وتماسكها ، ويستطيع بعض الناس أن يجعل منها مقياساً لحضارتها وثقافة مجموعها وفهمه لمقومات الأمم وتهذيب الأفراد .

وقد كان هذا المظهر الأخير من مظاهر التعصب أكثر وضوحا للمشتغلين بالصحافة والذين لهم وعى وحسن إدراك للتيارات الذهنية والتموجات النفسية والفكرية المجتمع المصرى . كما كان أبرز وأوضح لمن تولوا شؤون هذا الأنصاف للطبقات والخريجين والحاصلين على مختلف الأجازات العلمية والشهادات المدرسية وكم سمعنا وقرأنا لهؤلاء الذين تولوا هذه الشؤون فأدركنا أن الأمر جدّ ، وأنه مما يستحق أن يشتغل به المفكرون والذين لهم غيرة على وحدة الأمة الثقافية أو تماسكها الثقافى على الأقل .

وقد كان مما يهون - إلى حد ما - من شأن التعصب العنصرى والطائفى أن فشوه قاصر على السواد وأبناء الشعب وأن الساسة والمفكرين يقضون على سمومه عند أول نهزة .

ولكن هذا اللون الجديد من التعصب الثقافى ليس فاشياً بين السواد ولا بين أبناء الشعب ، ولكنه قائم محتدم بين الخاصة والمثقفين منه ، وأن أحداً لم يدرك خطره ولا شره فيعمل على خلاص هؤلاء المثقفين والخاصة منه ، ويعمل على أن يعود بهذه الشيع من المتخاصمين المتنابذين إلى مايجب أن يكونوا عليه جميعاً من رفعة التهذيب ، ومن تعمق الثقافة وسعة الصدر والأدراك

وقد يكون للسواد والجهلة شيء من العذر فى أن يتعصبوا وأن يفترقوا وأن يخاصم بعضهم بعضاً فيما لايجب أن يكون بينهم فيه خصام ، أوفيما يجب ألا يكون بينهم فيه خصام ، وأن يميز بعضهم بعضاً أو يفاضل بعضهم بينه وبين بعض آخر فيما يجب ألا يكون بينهم فيه تفاضل ولا تمايز . ولكنه لا عذر للمثقفين - إذا أرادوا أن يكون لهم من هذا الوصف نصيب - فى أن يتنابذوا ولا يتعصب كل منهم وينحاز إلى جانب يراه أرفع شأنا وأميز ثقافة وأقوم فى حياة الأمة وفى نفعها ، ليس لأنه كذلك فى واقع الأمر ، ولكن لأنه هو من هذا الطريق .

محمود الشرقاوى

من كتاب الحياة

شريد ...

للدكتور عزيز فهمى

مرّ بى كالخيالِ فى أسمالِه ... واهياً كالخيالِ عندَ زَوالِه

حائرَ الطَّرْفِ والخطى كطريدٍ ... ذاهلاً عن يمينه وشمالِه

راعشاً والسماء تُمطِرُ سَيْلاً ... يُنذِرُ الرَّعْدُ صاخباً بانهيالِه

يَهرأُ البَرْدُ ما يُواريه بُرْدٌ ... وصَرِيرُ الرِّياحِ دونَ سُعالِه

أيها العابرُ المُجِدُّ تَمَهَّلْ ... أنتَ أحرَى بأنْ تَرِقَّ لحالِه!

صِحْتُ: ياطِفلُ! لَمْ يَكَدْ يَنْتَبِهْ لى

فتبِعْتُ الشريدَ والقلبُ وَالِه

حَيْثُ أَثْوَى بمَسْجِدٍ غيرِ ناءٍ ... مُطْرِقاً من حَيائه وسُؤالِه

والمُصَلُّونَ مَنْ يُسَبِّحُ منهم ... عازفٌ عن فضوله وابتذالِه

حَرَماً ياأخى وياصاحِ جَمْعاً... أينَ مِنْ وقْعِها ذليل مَقالِه ؟

لم يجدْ راحماً ولا مُستجيباً ... بَعْدَ ما بُحَّ صوتُه من كلالِه

فانثنى عائداً بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ ... كاسفَ البالِ مُشفقاً من مآلِه

ثُمَّ ولّى إلى الكنيسةِ وجْهاً ... واستَجارَ الفتى بِعيسى وآلِه

رَدَّهُ سادِنُ الكنيسةِ رَكْلاً

لَيْتَ من رَدَّهُ استحى من جلالِه!

ما على الدَّيْرِ لو أقامَ نهاراً

أو أطالَ الوقوفَ فوقَ احتمالِه ؟

فمضى هائماً على غيرِ وجْهٍ

ليسَ يَلْوِى على هُدًى فى ضلالِه

وإذا بى أرى فَتًى أريحيّا ... هَزَّهُ النُّبْلُ لا يَضِنُّ بمالِه

يَتْرُكُ الحانَ والنَّدامى ويمدو ... كالذى فَرَّ ناشِطاً من عِقالِه

صاحَ بالطِّفلِ يا بُنَىَّ انتظرنى ... لحظة : فالطريق فى أوحالِه

وانتَضَى ثَوْبه وقالَ تَدَثَّرْ... وأضافَ الجوادُ بعضَ نوالِه

فتأمَّلْتُ ما رأيتُ مَليّا ... ذلكَ الدرسُ فاعتبِرْ بمثالِه

أيهم عندَ ربِّه مُتَّقيهِ ... ليتَ شعرى وأيهم غيرُ آلِه[1]؟

ليتهم إذْ صَفَوْا بِخَدٍّ ومالوا ... عَنْهُ أصْغَوا إليه عندَ ابْتِهالِه

مَنْ لهذا الشريدِ إنْ جَنَّهُ اللَّيْـ ... ـلُ وأَرْخى عليهِ من أَسْدالِه؟

قابِعٌ عندَ دِمْنَةٍ تَحْتَ جُبٍّ ... يَحْسَبُ الغولَ زاحفاً لاغتيالِه

قد تَعَرَّى إلى الثَّرى غيرَ فَضْلٍ ... منْ قَميصٍ مُهَلْهَلٍ كَرِمالِه

مَنْ لهـــذا اليَتيمِ أمسى وحيداً

مُشْفِقاً من غولِ الدُّجى وخيالِه

بَيْنَ فَكَّيْنِ مِنْ طَوىً وعَراءٍ ... يَدْفَعُ الموتَ وهْوَ بينَ نِصالِه

عالِقٌ بالحياةِ يبغى خَلاصاً ... ويَدُبُّ الفَناءُ فى أوصالِه

يَتَلَوَّى كما تَلَوَّتْ قَطاةٌ ... عَزَّها الفخُّ وهْىَ بينَ حِبالِه

أيُّها المانعونَ عنه زكاةً ... فَرَضَ اللهُ بَذْلَها لِعِيالِه

لا تصوموا ولا تقيموا صلاةً ... إنْ ضَنَنْتُمْ بها على أمْثالِه

يعلمِ اللهُ ما غَبَنْتُم جزاءً ... أيها المُمْعِنونَ فى إذْلالِه

أحسنوا البِرَّ إن أردْتم ثواباً ... وتواصَوا بِبِرِّه واتِّصالِه

عزيز فهمى

(١) الآله : العابد .

ديوان
أغاريد
الطبعة الثانية
للشاعر محمد فهمى
طابع جديد فى الشعر العربى
سوف تقوم من الشعر المرفيع
يطلب من مكتبة النهضة والمكتبة التجارية الكبرى
الثمن ٢٠ قرشا